أدوات التعبير الشعري لدى بكر بن حماد التيهرتي
– مقاربة أسلوبية– لرثائية ابنه عبد الرحمن

ط – د/ هاجر بن شريف
المشرف الدكتورة: فتيحة العزوني
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب والفنون
جامعة وهران1– (الجزائر)

الملخص:

لا يزال الشعر على مر العصور يصنع المآثر ويقف خلف المنعطفات التاريخية الحاسمة التي يصنعها رجال الحكم وممارسو السياسة. وهو يسعى دوما إلى استثمار الإمكانات التعبيرية بالرؤيا قصد تحريك اللغة والصورة والايقاع والانفتاح على الأنساق المجازية التي تنزاح فيها المعاني المعجمية للمفردات إلى معان رمزية تعلو بها التجربة الشعرية وتتكثف .وتتوخى هذه الدراسة مقاربة لإحدى أبرز قصائد الشاعر التيهرتي بكر بن حماد* و هي "رثائيته لابنه عبد الرحمن" , وفقا للمنهج الأسلوبي الذي يهتم بتحليل النصوص الإبداعية قصد الوقوف على جمالية هذا النص . فشاعرنا جسد صورة من صور الأصالة والانفتاح والتأثير والتأثر بين بلاد المغرب والمشرق من جهة وجودة ما قدمه وخلفه من تراث جزائري من جهة أخرى

Résumé:

La poésie à travers les âges continue d'avoir un impact et se tient derrière les tournants historiques critiques faits par les fonctionnaires du gouvernement et les praticiens des politiques. Il cherche toujours à exploiter le potentiel expressif de la vision afin de déplacer la langue, l'image et le rythme et l'ouverture sur les formats significations métaphoriques dérive du vocabulaire lexical à des significations symboliques au-dessus de l'expérience poétique et condensent. Cette étude envisage une approche à l'un des poèmes les plus éminents du poète Altaherty Bakr bin Hammad * et est « Rthaiath à son fils Abdel-Rahman, » selon l'approche stylistique qui se intéresse à l'analyse de textes créatifs afin de se tenir sur l'esthétique de ce texte. Notre poète a formé une image d'authenticité, d'ouverture, d'influence et d'influence entre les pays du Maroc et du Levant, d'une part, et la qualité de ce que lui et son successeur ont présenté au patrimoine algérien d'autre part.

لا يزال الشعر على مر العصور يصنع المآثر ويقف خلف المنعطفات التاريخية الحاسمة التي يصنعها رجال الحكم وممارسو السياسة. والشاعر أوثق علاقة بنصه لأنه يعتمد على قوة التعبير التي تحملها اللغة ليصور إيحاءاته وأفكاره. وهو يسعى دوما إلى استثمار الإمكانات التعبيرية المتعلقة أساسا بالرؤيا قصد تحريك اللغة والصورة والايقاع والانفتاح على الأنساق المجازية التي تنزاح فيها المعاني المعجمية للمفردات إلى معان رمزية تعلو بها التجربة الشعرية و تتكثف .

وتزخر منطقة المغرب العربي بالعديد من الشعراء الذين أسهموا في نقل العلم والمعرفة لبلادهم حتى تزدهر وتتقدم ،فقد جالوا كل ربوع البلاد الإسلامية قصد تلقيح معارفهم و استثمار ذلك في النهوض بالأدب المحليّ.

ويعد الشاعر الجزائري بكر بن حماد التيهرتي على رأس هؤلاء الشعراء ،ويعود الفضل في تعريفنا بشعر بكر بن حماد إلى ما أنجزه محمد بن رمضان شاوش حيث جمع ما وجده في مؤلف سماه "الدّر الوقاد"،مستعينا بمصادر سابقة عنه تناثرت فيها مقطوعات هذا الشاعر. إن تميز التجربة الشعرية لدى بكر بن حماد هو ما حفزنا نحو الاقتراب منها و مقاربتها في ظل أدوات إجرائية تساعدنا في إثارة جملة من التساؤلات أهمها : ما هي أدوات التعبير الشعري لدى بكر بن حماد ؟ و ما هي أهم خصائص شعره الأسلوبية ؟ و مدى تأثير شعره على متلقيه ؟

وتتوخى هذه الدراسة مقاربة لإحدى أبرز قصائد الشاعر التيهرتي بكر بن حماد* و هي "رثائيته لابنه عبد الرحمن" , وفقا للمنهج الأسلوبي الذي يهتم بتحليل النصوص الإبداعية قصد الوقوف على جمالية هذا النص .

مناسبة القصيدة :

اشتهر بكر بن حماد بقوة الحافظة و شدة الذكاء، و إجادته للشعر و الأدب ،حيث اشتغل بالقيروان مدرسا فقصده الطلاب من أنحاء المغرب العربي و الأندلس فذاع صيته . و ما كاد يستقر بها حتى أحاطت به الوشايات «فأوقعت بينه و بين الأمير ابراهيم بن أحمد بن الأغلب (حكم افريقية 261هـ–289هـ)»[1] ، فهرب بكر من القيروان فارا بحياته رفقة ابنه عبد الرحمن ،وفي الطريق إلى موطنه وعلى مقربة من تيهرت تعرض لهما اللصوص ، فأصيب

شاعرنا بجروح بليغة وقُتِلَ ابنه أمام عينيه في منظر مفجع ، كما سلب اللصوص كل ما وجدوه من مال و متاع .

تركت هذه الفاجعة أثرًا بالغاً في نفس شاعرنا وظلت تمزق أحشاءه ،فنظم قصيدة رثاه مؤثرة تعد من عيون الشعر العربي في الرثاء بلغت شاعريتها الحزينة ذروتها إلى الحدّ الذي تتضائل أمامها مراثي الخنساء لأخيها صخر . يقول الشاعر المكلوم[2]:

بكيْت على الأحِبَّة إذ تولّوا و لو أني هلكْت بكُوا عليًّا
فيا نسْلي بقاؤك كان ذخْرا وفُقْدك قد كوى الأكباد كيّا
كفى حزنا بأنني منك خلْوُ و أنّك ميّت و بقيْت حيًّا
دعوتك بابنيَّ فلم تجِبْني فكانت دعوتي يأسًا عليًّا
ولم أكُ آيسًا فيئِسْت لمَّا رميْت الترب فوقك من يديًّا
فليْت الخلق إذ خلقُوا أطالوا و ليْتك لم تكُ يا بِكرُ شيًّا
تسرُّ بأشهرٍ تمر سراعًا و تطوي في لياليهنّ طيًّا
فلا تفرح بدُنيا ليْس تبقى و لا تأْسَف عليها يا بنيًّا
فقد قطع البقاء غروب شمس و مطلعُها عليَّ يا أخيًّا
وليس الهمّ يجلوه نهار تدور له الفرَاقـــــــــــد
والثريَّا

المقاربة الأسلوبية للقصيدة:

جاءت القصيدة معنونة بـ:"رثائية بكر لابنه عبد الرحمن" في مؤلف"الدر الوقاد"،وهو عنوان موضوع من جامع شعره ،ذلك أنَّ الشعراء في القديم لم يضعوا عناوين لقصائدهم فذلك لم يكن شائعًا بينهم ،على عكس المعاصرين فإنهم يعنونون كلّ قصيد ةوكل ديوان يصدر لهم و هذا يبيّن مدى عمق تجربتهم ،بحيث يدل العنوان على ما أراد أن يستثيره لدى قارئه[3].

1-الهندسة الصوتية للقصيدة :

يتميز المستوى الصوتي بتنوع المداخل التي تمكننا من الشروع في الدراسة الأسلوبية، ويظل العامل المشترك بين هذه المداخل هو البدء باللغة أو منها[4].و بالنظر إلى القصيدة التي بين أيدينا نلاحظ أن الشاعر قد افتتحها بجملة «بكيْت» وهي جملة تتألف من الفعل

الماضي« بكى» وضمير المتكلم «التاء»حيث يرى بعض النقاد أنه أنسب الضمائر للتعبير عن الذات . و الجملة «بكيْت» ذات دلالة معنوية ,فهي تعبير عن الحزن الذي قد طغىعلى القصيدة ،و آلام الفقد و اليأس و الأسف. بالإضافة إلى تواجد عبارات أخرى دالة على المعاناة التي عاشها بكر بن حماد بفقد ابنه ،كما أنَّ الفعل« بكى» فعل معتل ناقص وفي ذلك دلالات كثيرة منها ،هذا النقص الذي يشعر به الشاعر والعلة التي تلازمه بفعل فقد. السند في الدنيا.

دون شك أن المتتبع لأبيات الشاعر بكر سوف يقف عند العديد من العناصر التي تتشكل منها الموسيقى الداخلية، من جانبنا سنقف عند ثلاثة منها: التضعيف، والمد، وتكرار الحروف.

تكشف الأبيات عن مساحات حزن عميق يحتدم داخل الذات التي تعرضت إثر هذا الرحيل إلى ضرب من الانكسار النفسي ساعدت على إظهاره الألفاظ التي تضم حروفا مضعفة مثل: الأحبّة،تولّوا،ميّت،حيّا، يديّا، شيّا، ليالّهن ، طيّا، بنيّا... ومعلوم أن «استخدام التضعيف في اللفظة يضخم حالة الحزن عند الشاعر ويشدد على أثر الفراق وتداعياته وذلك لما يتميز به الحرف المضعف من قوة وشدة»[5] .

خلاصة القول فإنّ «التضعيف يتسم بأنه ذو بعدين متناميين»[6]، أولهما أنه تأكيد على واقع الحال بغرس الحقيقة القائمة في ذهن المتلقي,وثانيهما أنّ الشاعر يسعى إلى صب انفعالاته و مشحوناته عبر هذا المناخ الموسيقي ،وهو بحسب ما نتصور ما قصد الشاعر بكر بن حماد إلى رسمه وإثباته في ذهن القارئ,معبرًا بذلك عن ذاته الْمنهزمة.

كان بكر واعيا بقيمة حروف المد ولم يكن استخدامه لها بمحض الصدفة. ونقف على ذلك من خلال التوزيع الذي شمل أبيات القصيدة حيث وجدنا في البيت الأول ثلاث كلمات ممدودة،وهذه دلالة على بداية سريعة في النطق، وفي الثاني نجد ست كلمات ممدودة ،وهنا ينقطع الصوت السريع إعلانا من الشاعر بأن المعاناة قد اشتدت،فسمة حروف المد أنها تفرض على المتلقي قراءة الأبيات ببطء وتأن ولو أراد الإسراع ما أمكنه ذلك. وفي البيتين الثالث والرابع، تهدأ نفس الشاعر فيستخدم في كل بيت كلمتين فيهما مد،وكأنه يستريح ليعود إلى المعاناة والعذاب بعد ذلك،ففي البيت الخامس يستخدم المد ثلاث مرات وفي البيت السادس خمس مرات،وفي البيت السابع ست مرات،وفي الثامن ست مرات وفي التاسع خمس

مرات،وكأن بالشاعر قد أراد بهذه الهندسة الصوتية أن يشد آذاننا وذواتنا إليه،فقارئ الأبيات سوف يشعر لا محالة بتلكم الاهتزازات النغمية التي توفرها الألفاظ الممدودة[7]، بداية سريعة ثم بطؤ ثم سرعة فبطؤ،ممّا يحدث تناغما يولد رنينا موسيقيا ينسجم مع انفعال الشاعر.

2– الإيقاعي الداخلي و الخارجي:

يظهر الإيقاع الداخلي لهذه القصيدة في تكرار بعض الحروف بشكل لافت، مما يجعل من ذلك سمة أسلوبية. فإذا استثنينا الألف التي تصاحب عادةً الكلمات المعرفة ،وتلتصق بالأفعال الماضية المسندة إلى واو الجماعة و حروف النداء في الغالب،فإنَّ أكثر الحروف تكراراً في هذه القصيدة "**ي**"(36)مرةً ،و" **ل**" (33)مرةً،ف"**و**"(26)مرَّةً،تليها"**ت**"(24) مرة ثم "**ك**"(19)مرة،و تتنوع هذه الحروف في مخارجها بين حلقي و مهموس،والصوت المهموس هو «الصوت الذي لا تتذبذب الأوتار الصوتية حال النطق به»[8]وكأن به يهمس بآهاته إلى نفسه همسًا،بعد أن جُرِحَ و قَتَلَ اللُّصوص ابنه فلم يجد من يبثه همومه وأحزانه إلاَّ نفسه المفجوعة بأقرب الناس إليه ،هذا الابن الذي يناديه في البيت ما قبل الأخير (يا خَيًّا)،مما يفسر تلك الرابطة القوية بين الوالد الشاعر والولد الفقيد.

القصيدة من بحر الوافر ،وتفعيلاته :مفاعلتن مفاعلتن فعولن ،وحرف الراوي "الياء".ختمت قافيتها بوصل مفتوح،«ويمتاز الفتح عند النطق به بانعدام أنواع الاعتراضات أو العقبات من طريق الهواء،وينشأ عن انعدام الاعتراضات أن ينعدم وجود أي احتكاك يصاحب النطق»[9]،ولعل الفتح يتلاءم مع ما يريد بكر بن حماد أن يكشف عنه ويوضحه للمتلقي،فتصل الرسالة بجلاء معبرةً عن حزنه وما قاساه مما ألم به .كما أن الوافر بحر تام يتيح استعماله للشاعر التعبير عن خلجات النفس،وهو أنسب البحور لفن الرثاء،ولنا في تماضر بنت الحارث أحسن دليل ومما قالته على هذا البحر في رثاء صخر[10]:

يُؤَرِقُنِي التَّذكُرُ حينَ أمْسِيَ أصْبَحَ قد بَلِيْتُ بِفرْطِ نَكْسِي

3– **المستوى التركيبي:**

عند دراسة المستوى التركيبي لهذه القصيدة يمكننا من البحث عن الخصائص المميزة للشاعر، فإذا عدنا إلى القصيدة وجدنا أغلب جملها فعلية تنوعت بين الماضي والمضارع،واستعمال الفعل كما هو معروف فيه دلالة على التغير والتبدل [11]،فهو يعبر عن حدث غيّرَ في حياته وأحدث ثورة من الحزن داخله عكرت صفو الأيام التي قضاها ينعم

بالدفء العائلي،ويشعر أن بقاء ولده كان له ذخرًا في حياته،وما يعمّق حزنه أن ابنه نأى عنه وبعُدَ و أصبح خلوًا منه،بل أكثر من ذلك فهو محزون حتى ببقائه حيّاً بعد ولده، فكأن الحياة لا طعم لها بدونه.ومن السمات البارزة في هذه القصيدة استعمال الشاعر لأفعال من شاكلة:بكى،دعا،كوى،كفى،كان،رمى، طوى ،بقي،جلا،دار ...ومما يلفت النظر فيها أنها كلها أفعال معتلة،ولعل في ذلك دلالة واضحة على ما أصاب الشاعر وألمَّ به ،فهو عليل يعاني آلام الفقد.

ومن الجمل الاسمية التي وردت في القصيدة (بقاؤك كان ذخراً) فقد تقدم المبتدأ عن الخبر الذي جاء جملة اشتملت على فعل ماض ناقص وأجوف،وفي ذلك دلالة على النقص الذي يشعر به والحزن الذي يكابده و الإحساس الذي يتملكه بأنه صار أجوف ناقصًا . كما أن تقدم المبتدأ(بقاؤك) يشعرنا أنَّه إنما قدمه لأنه يتمنى أن يدوم ذلك البقاء،وربط بينها وبين جملة اسمية في الشطر الثاني (وفقدك قد كوى الأكباد كيًّا). وجعل الخبر فيها جملة فعليةً مسبوقة بالحرف (قد) الذي يفيد التحقيق قبل الفعل الماضي،ليدلَّ على ذلك الفقد بالفعل (قد كوى الأكباد).كما أنّ استعمال الشاعر كلمة الأكباد بصيغة جمع التكسير يوحي أنَّ كبد الشاعر ينكوي بهذا الكي حيناً بعد حين ومرَّةً بعد أخرى.

أما التوكيد فقد استعمله الشاعر أكثر من مرة؛ففي البيت الثالث نجده يؤكد حقيقتين عايشهما و وقف عليهما إذ يقول:

كَفَى حُزْنًا بأنِي مِنْكَ خُلْوُ وأنَّكَ مَيِّتُ وبَقَيْت حيّا

مستعملاً في المرتين حرف التوكيد (أنَّ) . أما حالات الإثبات فقد كان لها حظ من اهتمام الشاعر.فهو بصدد الإخبار والتقرير و الإعلام، فيتحدث عن بكائه على الأحبة بعد فراقهم، وما سبّب له فقدهم من آلام وأحزان وتركه وحيدًا. ويخبرنا أنه دعا ابنه ولم يتلقَّ إجابةً منه ويئس من دعوته إياه،كما استعمل إثباتا مستخدما النفي في قوله:

ولَمْ أَكُ آيِسًا فيئِسْتُ لمَّاَ مَيْتُ التُّرْبَ فَوْقَكَ من يَديَّا

أما النفي الحقيقي فقد استخدمه شاعرنا في مواضعَ متعددة ،فقرنه بالتمني في:(وليتك لم تك يا بكر شيّا) ،وفي البيت الثامن على مرتين:

فَلا تفْرح بدُنيا ليْس تبقى ولا تأسَّف عليها يا بنيّا

أما النداء الذي يفيد طلب الإقبال ،فإنه يُعدُّ سمة أسلوبية عند بكر بن حماد في هذه القصيدة ،فقد تكرَّر خمس مرات ،كان المنادى فيها الابن الفقيد أربع مرات والخامسة نادى بها نفسه،فكأن الشاعر بعد تأكده من الفقد والفراق أصبح لا يملك وسيلةً أخرى يستأنس بها في وحدته غير مناداته لابنه.

4–المستوى الدلالي:

إن الحقل الدلالي يعرف بأنه «مجموعة من الكلمات ترتبط دلالتها،وتوضع تحت لفظ عام يجمعها»[12] ,وهذا يعني أن الحقل الدلالي يتكون من مجموعة من المعاني التي ترتبط فيما بينها، وتتميز بوجود عناصر أو ملامح دلالية مشتركة تكشف الصلات الموجودة بين تلك الألفاظ . فالهدف العام من تحليل الحقل الدلالي هو «جمع كل الكلمات التي تخص حقلاً معينًا،والكشف عن صلاتها الواحد منها بالآخر،وصلاتها بالمصطلح العام»[13]. والحقل الدلالي الذي يشيع في مرثية بكر بن حماد هو حقل الحزن بألفاظه المعبرة عن الألم والفقد والأسف والحسرة وما إلى ذلك من الألفاظ التي تصف حزن و آلم الشاعر،ومنها:بكيت ،هلكت ،بكوا،فقدك،كوى ،كيّا ،حزناً،ميت،آيسًا،يئست،رميت الترب،تأسف،وكذا مع بقية الألفاظ ، وإن لم تعبر صراحةً عن الحزن والألم إلا أنها تدور في فلكها.

بعد الذي تقدم من تحليل لقصيدة"رثائية بكر لابنه عبد الرحمن" نقف على أدوات التعبير الشعري لدى بكر بن حماد ،فاعتمادا على الإشكال المطروح يمكننا القول أن شاعرنا جسد صورة من صور الأصالة والانفتاح والتأثير والتأثر بين بلاد المغرب والمشرق من جهة وجودة ما قدمه وخلفه من تراث جزائري من جهة أخرى بعيدا عن مقارنته بفحول شعراء العرب.

لنؤكد في الأخير أن تراثنا الجزائري غني بكل أنواع المعارف في شتى العلوم والتخصصات،ولكنه يبقى دومًا في حاجة إلى من ينقب ويبحث عنه بين طيات الكتب ليبعث الحياة فيه من جديد خاصة وفق مناهج النقد الحديثة التي تقف على جوانب هامة من الإبداع وتستجلي كثيرًا من غوامضه ،وهو ما توخينا تحقيقه في هذه المقاربة التي عولنا عليها.

مكتبة البحث :

*بكر بن حماد هو"أبو عبد الرحمن بكر بن حماد بن سهل بن إسماعيل الزناتي التهرتي عايش فترة(200هـ–296هـ)"ولد بـ"تيهرت" عاصمة الدولة الرستميّة سنة 200 هـ ،تلقى تعليمه الأول بمدينته ,ثم التحق بالقيروان سنة 217 هـ فأخذ بها عن علمائها كالإمام سحنون ،واصل رحلته إلى المشرق وتزود بعلوم الدين واللغة والأدب على يد الأئمة الأعلام كالإمام الحافظ مسدد بن مسرهد الذي سمع منه المسند ،و حاتم السجستاني وابن الأعرابي ،تلميذ الأصمعي ،ومن أعلام الشعراء مثل: أبي تمام ودعبل الخزاعي ،وعلي بن الجهم وغيرهم ،توفاه أجله في سنة 296هـ .

1– عبد العزيز نبوي، محاضرات في الشعر المغربي القديم. الجزائر: ديوان المطبواعات الجامعية، 1983 ,ص132 .

2– محمد بن رمضان شاوش ، الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي. الجزائر : الطبعة العلوية .ط 1 ، 1966 ,ص87–88 .

3– ينظر: طه وادي ,جماليات القصيدة المعاصرة ,دار المعارف , ط2 ,1989 ,ص97 .

4– م س ,ص99 .

5– صابر عبد الدايم ،موسيقى الشعر العربي بين والثبات والتطور ،مكتبة الخانجي، القاهرة،1993 ،ص120 .

6– أماني سليمان داود ,الاسلوبية و الصوفية ,دار مجدلاوي ,عمان ,2002 ,ط1 , ص75 .

7– ينظر: م س ,ص75 .

8– سي دي لويس ،الصورة الشعرية ،ترجمة أحمد نصيف الجنابي، مالك مبري سلمان حسن إبراهيم، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية ,1982 ,ص120 .

9– أماني سليمان داود ,الاسلوبية و الصوفية ,دار مجدلاوي ,عمان ,2002 ,ط1 , ص75 .

10– أبور أبو سويلم ،ديوان الخنساء ،بشرح ثعلب ،دار عمار ،عمان ،1988 ،ص325 .

11- مختار حبار ,الخطاب الأدبي القديم في الجزائر(دراسة بيبليوغرافيا) ,منشورات مختبر الخطاب الأدبي في الجزائر ,جامعة وهران ,دار الأديب ,وهران ,2007م ,ص81 .

12- أحمد مختار عمر ,علم الدلالة ,مكتبة دار العرب للنشر و التوزيع ,الكويت ,ط1 ,1402هـ-1982م ,ص79 . وينظر أيضا عبد الجليل منقور ,علم الدلالة أصوله و مباحثه في التراث العربي ,منشورات اتحاد الكتاب العرب ,دمشق ,2002م ,ص194 .

13- م س ،ص80 .

14- ايقاع الداخلي

15- ايقاع الخارجي

16- الخصائص التركيبية

17- الحقل الدلالي

18- الابداع

19- التراث الجزائري